مجلة رفوف ISSN: 2335-1381
مجلد: السادس عدد: الأول السنة: سبتمبر 2018

المولديات النبوية في المديح النبوي الجزائري القديم وسماتها الفنية

جميلة معتوق ، دكتوراه لغة وأدب عربي ، جامعة أدرار
- البريد الإلكتروني : maatdja@yahoo.com

الملخص:

لقد شكلت المولديات النبوية حافزا قويا لإثراء شعر المديح النبوي الجزائري في القديم لاسيما في عصر الزيانيين حيث كان زمن تألقها والعناية بها؛ وقد اقتضت الحاجة الدينية والظروف السياسية آنذاك أن يُهتم بها للاقتداء بشخص الرّسول (ﷺ)؛ لأنها نص شعري يُعنى بذكرى مولده النّبي، وكلّ ما يتعلق بأخلاقه وصفاته (ﷺ)، وما يميز المولديات النّبوية عن النّص المدحي النّبوي بناؤها الفني شكلا ومضمونا، وذلك من خلال المواضيع التي تتطرق إليها ومكوّناتها الأساسية التي تنفرد بها وسمة معجمها الشعري وكذا الصورة الشعرية.

الكلمات المفتاحية: المولدية النبوية – البناء الفني– الشّكل – المضمون– المعجم الشعري – الصورة الشعرية.

Abstract:

The Prophet's birthdays (Mawlid al-Nabawi) were a strong incentive to enrich the Algerian prophet's praise poetry in the old era, especially in the era of the Zayani, where it was a time of brilliance and care; the religious need and political circumstances required it to be followed by the person of the Prophet (PBUH), because it is a poetic text that refers to the birth of the Prophet (PBUH) and all what concerns his morals and qualities .What distinguishes Mawlid al-Nabawi from the prophetic texts is its artistic structure in form and content, through the subjects that are discussed and its basic components that are unique to it and the character of its poetic dictionary as well as poetic image.

Key words*: Mawlid Nabawi – artistic structure – form – content – poetry dictionary – poetic image*

مقدمة:

حين نذكر المولديات في المدائح النّبوية الجزائرية قديما، فإنها مسألة متعلقة بالعصر الزّياني ومدى الاهتمام الذي وجدته من قبل أبي حمو موسى الزّياني الذي كان سببا في انتشارها لمّا نقلها من المغرب إلى الجزائر، وقد ارتبط شعر المولديات النّبوية عموما ارتباطا وثيقا بتلك الاحتفالات الرسمية التي كان يُنَظّمها ملوك المشرق والمغرب الإسلاميين في كل عام بمناسبة ليلة المولد النّبوي الشريف، وهذا ما عرفت به البلاد الإسلامية[1]، وهي سلوكيات جسّدت تلك المظاهر الأولى للاحتفال بالمولد النّبوي الشريف، وهذا ما يؤكد جذور الاحتفال بهذا اليوم العظيم عند العرب.

ومع توالي الأيام، نالت مكانة الرسول (ﷺ) الحظوة الكبرى في الشعر العربي والمغربي بالخصوص؛ وهذا لدواعي سياسية اقتضتها الأحداث التي كانت تمر بها الأمة الإسلامية مع الغزو الصليبي والهجوم التتاري، فكان لابد من تعبئة الشعور العام والدّعوة إلى الجهاد والدّفاع عن القيم الدينية والتّمسك بها، وكان الرسول (ﷺ) في مثل هاته الظروف هو النموذج الذي يحتذى به، وهذا ما يؤكد أن طبيعة المدائح النبوية قد تغيرت عما كانت عليه مقارنة بالعصور السالفة، وحتى الأهداف كان لها وجهات أخراة مع الأحوال الاجتماعية والسياسية.

وكان أبو حمو موسى الزياني(791هـ)* من المدافعين عن الدين الإسلامي، وقد حرص على عدم ضياع المبادئ الدينية وسط تلك الأفكار النصرانية، من خلال اهتمامه الكبير بيوم المولد

[1]– رحلة ابن جبير، دار صادر، بيروت، (د،ط)، (د،ت)، ص 92.

* أبو حمو موسى الزياني الثاني، ولد سنة 723هـ بغرناطة عاصمة بني الأحمر، وهو ابن يوسف بن عبد الرحمان بن يحيي يغمراسن بن زيان مؤسس الدولة العبد الوادية، نشأ بتلمسان وعاش حياة البلاط والقصور، درس على أشهر العلماء ونال من العلم حظّا كبيرا، وقد حصّل من العلوم العربية والمبادئ الدينية، وهو من جدّد الدّولة الزّيانية هناك في القرن8هـ، وأقامها على مبادئ الدين الإسلامي(ينظر عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر–

الشريف؛ حيث نقله من أبي العبّاس العزفي (633هـ) في سبتة[1]، ما يدل على عزمه في تغيير الأوضاع، من خلال عنايته بالمولد النبوي الشريف، وهو يعمل على تهيئة الأجواء الملائمة للمولديات النبوية الجزائرية، وإلقائها في جوّ روحاني مهيب من طرفه والشعراء.

لقد كان له الفضل الكبير في ترسيخ دعائم هذا النوع من الشعر الذي يعنى بمولد الرسول(ﷺ) في العصر الزياني، وهذا بعد ما تقلد حكم البلاد، وحرص على توطيد مبادئ الدين الإسلامي بمملكته، وقد نوّهت المصادر التاريخية بهاته الجهود في إحيائه للدولة الزيانية وإقامته على أحسن الأحوال، وذلك سنة 760هـ لمّا استقر بها و«وانتزع دولته غصّابها سَاسَ أهل مملكته بالسيرة الحسنى، وغمر الرّعية قسطاس عدله الأسنى، وقسّم أوقاته بين حكم يقضيه وحق يمضيه...»[2]؛ فتميّزت فترة حكمه بازدهار الحياة السياسية والاقتصادية والفكرية بها، وعمل على حماية الدّين وإرساء قواعده، وكان يدرك قيمة العلم وضرورة التركيز على الاهتمام بالعلماء والفقهاء والأدباء، والاستعانة بكلّ ما ينوّر آفاق دولته؛ حيث نقل الجوّ الثقافي من الأندلس فاس إلى تلمسان ليعّزز من شأن الحركة الفكرية والانفتاح الثقافي بالمغرب الأوسط لمعالم حضارية كثيرات.

ولذلك شهدت الفترة الزيانية ازدهارا كبيرا، وكانت «عبارة عن تواصل حضاري وحركية اقتصادسة وتجارية واسعة، وكانت دائمة الاستقبال والاحتفاء بالتاجر وبطالب العلم معا، موفرة جميع سبل العيش محققة لهم الأمن والطمأنينة»3، فكان لها حظّها من الانفتاح الحضاري، وحين نبحث عن حياة السلطان العلمية، فلم يقف عند كونه سياسيا محنّكا فحسب، بل كان له حضوره

بيروت– لبنان، ط2(1400هـ– 1980م، ص 125، وينظر عبد الحميد حاجيات، أبو حمو موسى الزياني(حياته وآثاره)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط(3)، 1982، ص69–155).

[1]– لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج(3)، تح: محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط(1)، 1395هـ– 1975م، ص 11.

[2]– محمد بن عبد الله التنسي، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، تح: محمود بوعياد، وزارة الثقافة، (د،ط)، 2007، ص 160.

[3]– أحمد موساوي، المولديات في الأدب الجزائري القديم عهد تلمسان الزيانية، موفم للنشر والتوزيع، (د،ط)، 2008، ص 31.

الأدبي و«له من النثر والشعر الفائق ما ارتفعت صنعته من بلاغة الملوك...»[1]، ولذلك كان من بين الأولويات في احتفائه بالمولد النبوي الشريف، نظمه للمولديات النبوية وإلقاؤها، ولا يخفى علينا سرّ اهتمامه بها ومدى إدراكه لأهميتها في توطيد الدين والحفاظ على مقوّماته من خلال أخلاق النبي(ﷺ)؛ حيث كان ينظم المولديات النبوية مع شعراء دولته، والعمل على إلقائها على الجمهور الذي يشهد ذلك الجوّ الاحتفالي بالمولد النبوي.

وهذا ما فتح للمولديات النبوية باب الازدهار، مُشكلَة دافعا قويا في انتشار المديح النبوي الجزائري القديم في الفترة الزيانية، مضيفة خصائص ومميزات فنية انفردت بها عنه، وهنا تتوضح إشكالات الدراسة عن تلك السّمات الفنية التي عرفت بها، وعن البناء الذي طبع ملامحها من حيث الشّكل والمضمون، وسنقف عند ذاك محاولين البحث وفق خطة الدّراسة المتمثلة في العناصر التالية:

أولا: مفهوم مصطلح المولدية.

ثانيا: بناء مضمون المولدية النبوية.

ثالثا: بناء شكل المولدية النبوية.

رابعا: خاتمة

أولا: مفهوم مصطلح المولدية

يرتبط مصطلح المولديات بكلمة المولد؛ «فمولد الرجل: وقت ولاده، ومولده: الموضع الذي ولد فيه...، وميلاد الرجل: اسم الوقت الذي ولد فيه»[2]، ولذلك أطلق على هذا النوع من المديح النبوي "المولديات"؛ لأنها تُعنى بيوم مولد النّبي(ﷺ)، ولذلك فإن المولدية تستمد تسميتها من ذكرى مولد النّبيρ، والتي من أجلها نظمت أبياتها.

[1]– محمد بن عبد الله التنسي، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، ص 161.

[2]– ابن منظور، لسان العرب، ج(15)، مادة (ولد)، المكتبة التوفيقية للطباعة، (د، ط)، (د ،ت)، ص444.

وقد عرّفها لسان الدّين الخطيب(776هـ) في كتابه "نفاضة الجراب في علالة الاغتراب" على أنها «المنظومة في مدح رسول الله والإشادة بميلاده وذكر معجزاته ثم التخلص إلى مدح السلطان وذكر خلاله وإطراء تحفّيه بهذه الدعوى»[1]، وهذا ما يميزها عن المديح النبوي لأنها تعتبر مديحا يلقى ليلة المولد النبوي الشريف وتتضمن مدح النبي ومدح السلطان والشوق والحنين إلى الأراضي المقدسة.

وهذا ما توضحه الأستاذة فاطمة عمراني عن المولديات في أنها تستهل «بالحنين إلى الحجاز ثم يتغنى بفضائل الرسول ومعجزاته الباهرة وينهي المولدية غالبا بمديح السلطان الذي أقيم الاحتفال النبوي في عهده»[2]، وقد اعتبر ذلك تقديما بالحب المحمدي والبكاء على الديار المحمدية لا وقوفا على الأطلال وذكر الغزل.

وهي تتضمن مواضيع أساسية تعتبر مكوّنة لها ويغلب حضورها؛ حيث يستهل الشاعر فيها بالشوق والحنين والبكاء على الديار المحمدية ثم ينتقل إلى المدحين النبوي والسلطاني مع الخاتمة في الأخير، ويعتمد الشاعر لتشكيل مواضيع مولدياته على النّصوص المقدسة وعالم التصوف وحتى النص الشعري القديم، والدكتور جميل حمداوي في معرض حديثه عن المدائح النبوية، يرى أنها تتداخل مع قصائد المولد النبوي الشريف، وتركز على يوم مولده في الثاني عشر من ربيع الأول حيث يعتبر يوم فرح وسرور تقام له الولائم والمجالس وتنشد فيه هاته القصائد معبرا الشاعر فيها عن شوقه للبقاع المقدسة[3].

[1]– لسان الدين الخطيب، نفاضة الجراب في علالة الإغتراب، ج(3)، تق، تح: د. السعدية فاعية، (د،ت)، (د،ط)، ص279.

[2]– فاطمة عمراني، المدائح النبوية في الشعر الأندلسي، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، ط(1)، 1432هـ –2011م، ص140.

[3]– جميل حمداوي، شعر النبوي المديح في الأدب العربي، مقال بالشبكة المعلوماتية، ديوان العرب، سنة 2007، الموقع: http://www.diwanalarab.com.

ولهذا قد كانت المولديات مديحا نبويا «يذكر فيها الشعراء أخلاق النبي وغزواته وكل ما يتعلق بسيرته ويخلصون في النهاية إلى مديح السلطان الحاضر»[1]، فيعبّر الشاعر فيها بصدق المشاعر عن أحاسيس العظمة والانبهار لصفات النبي الخُلقية والخِلقية ومعجزاته، والشوق لرؤياه وزيارة قبره والأماكن المقدسة المرتبطة بحضرته، وأخذ المواعظ والعبر والصلاة عليه، وطلب الشفاعة منه والتوسل ليغفر الله، هي أحاسيس تخصّ سيد المرسلين يعمل فيها الشاعر على توفير كلّ ما لديه من طاقات فنية إبداعية يسخرها لإبراز تلك المكانة والعظمة التي حباه الله بها2، ثم يأتي بمدح السلطان وما كان له من إنجازات خاصة بتحضيره للاحتفال بالمولد النبوي الشريف.

فتقام المجالس الدينية، وتنشد فيها القصائد في مدح المصطفى ومدح السلطان، ويظهر فيها الشاعر مدى شوقه للبقاع المقدسة، وهكذا حتى أصبحت ظاهرة منتشرة في المشرق والمغرب على السواء لظروف طبعا دينية والأخرى اجتماعية لاسيما في المغرب الأوسط مع الزيانيين، الذي يعدُّ بالنسبة للمولديات النبوية العصر الذهبي؛ لأنه «حدث فريد من نوعه قد عرف ترعرعا وعناية في كفاية السلطان الشاعر أبي حمو الزياني الذي أضفى على هذه المناسبة طقسا خاصا لم تعرفه بقية الممالك المجاورة»[3]، وهذا لدوره في تطورها ورقيّها بشكل يستدعي الوقوف عليها بالدراسة والتحليل لنستشف الميزات والخصائص التي تميزت بها خاصة.

فكان أن عمل على تطور هذا النوع من الشعر تحت مسمى المولديات بمميزات في البناء وفي الشكل، ومما زاد الأمر أهمية على حدّ قول عبد الله حمادي كون الملك أبو حمو موسى الزياني من فحول الشعراء للدولة الزيانية[4]، وعليه فقد كان على دراية كيف يستقطب العامة في مثل هاته المناسبة، وهذا ما جعله ينفرد بخصوصيات اعتبرت محفزات لعملية التّلقي مفتتحا

1- أحمد موساوي، المولديات في الأدب الجزائري القديم عهد تلمسان الزيانية، ص85.

2- زكي مبارك، المدائح النبوية في الأدب العربي، مصر الجديدة 1354هـ- 1935م، (د، ط)، ص17.

3- د.عبد الله حمادي، دراسات في الأدب المغربي القديم، (ط)1، دار البعث للنش والتوزيع، 1406هـ- 1986م، ص 262.

4- المرجع نفسه، ص 250.

الاحتفال بإلقائه لمولديته على المستمعين ثم يليه الشعراء ملقين مولدياتهم من بداية الليل إلى بزوغ الفجر.

وهذا بعدما نوضح صورة المولديات وما السّمات الفنية التي تنماز بها من حيث الشّكل والمضمون، فأمّا من جهة بنائها الفني المتعلق بالمضمون فقد تميزت المولديات ببناء خاص بها، وهو يبرز طبيعة مواضيعها التي عبّرت عنها في ثلاث محطات، وهي (المقدمة في الشوق والحنين والمدح النبوي ومدح السلطان)، وعليه فإنّ لها ثلاثة محاور تدور عليها المولدية النبوية، وهي:

أولا: النسيب والطلل(المقدمات الطللية والغزلية) وتتضمن الشوق والحنين للأراضي المقدسة(الحبّ المحمدي)

ثانيا:المديح النبوي

ثالثا: مدح السّلطان

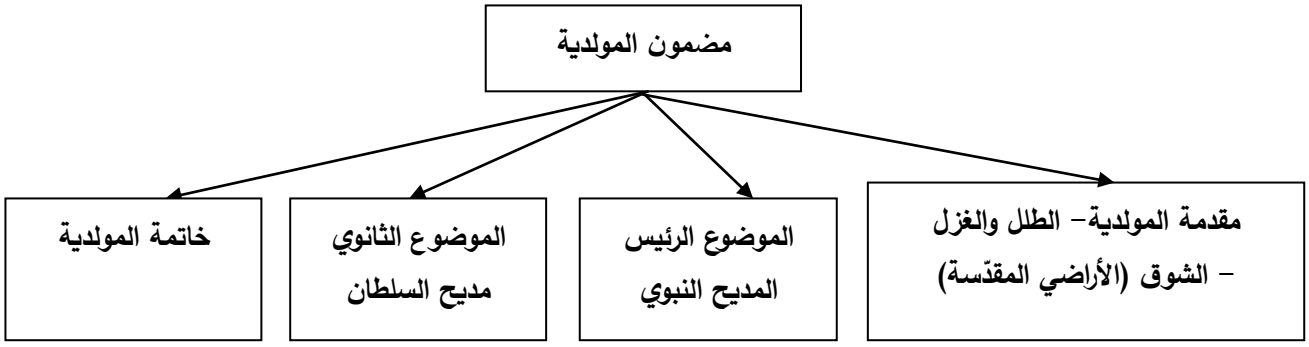

ثانيا: بناء مضمون المولديات النّبوية

أ. مقدمة المولدية

فعلى طريقة القدامى كان شعراء المولدية النبوية يقدمون وقد كانوا أوفياء للقصيدة العربية؛ حيث حرصوا على أن تتصدر مولدياتهم كلّ المقدمات التي سنّها العرف النقدي على الشعراء في

تقديمهم، وقد ساروا على نهجهم مضمنين الطلل والنسيب في وصفهم للرحلة إلى البقاع المقدسة والتطلع إلى زيارتها، بالإضافة إلى المقدمات التي تضمنت الحمد والتسبيح والتضرع إلى الله.

وإن كانت الدّيار والأهل والخلان غير تلك التي عرفناها مع امرئ القيس وعنترة وغيرهما في مقدمات شعراء المولدية إلا أنهم لم يجدوا مشكلا في الوقوف على الطلل حتى وإن لم يروا طللا ولكنه تقليد لابد من السير على نهجه؛ لأنّ المقدمة الطللية تعدّ ظاهرة فنية «كثيرا ما استهوت قلوب الشعراء قديما، وكانت بالنسبة لهم قالبا فنيا استوعب كثيرا من ذواتهم ومواقفهم»[1] للتعبير عن الديار المحمدية ومشاعر الشوق والحنين التي استوعبتها كذلك المقدمة الغزلية نظرا لما«تحدثه من أثر في المتلقي أو بما تعبّر عن ذاتية المبدع وما تتيح له من فرص البوح بمكنوناته وفيض مشاعره»[2]، وهذا لأنها تنبع من نفس مشتاقة لروحانيات البقاع المقدسة التي تشده نفسه إليها.

فالديار عنده هي مكة والبقيع وطيبة وسلع ورامة ونجد والأهل والخلان الرسول وآله وصحابته...وحتى دلالات الرموز التي عرفت في قاموس الشعر القديم بات لها دلالة مدحية نبوية تطال عالم التصوف كرمز للكعبة والحرم والقبة الخضراء والمقام وغيرها « فهذه الأطلال المزعومة عند الشعراء لا وجود لها في الواقع بل هي تقليد أسهم الخيال من خلالها في إذكاء شوق الشاعر وحنينه إلى الحجاز والأماكن المقدسة، فأوصلته الراحلة إلى تلك المرابع ومنها إلى مدح الرسول»3، وذلك في إطار ما يسمى بالحب المحمدي والتقديم بالنسيب المحمدي، ولذلك فهي تتوافق ومشاعر الشاعر اتجاه النبي في مدحه.

وهذا ما وجدنا عليه شعراء المولديات النبوية الزيانيين، وهم يستعينون بطريقة التقديم القديمة في كل عام من ذكرى المولد النبوي الشريف وفي كل المولديات التي اطلعنا عليها في كل

[1]– د.محمد زلاقي، بناء القصيدة المولدية في المغرب الإسلامي، دار بهاء الدين للنشر والتوزيع، (د،ط)، 2013، ص 53.

[2]– المرجع نفسه، ص 60.

3– أحمد موساوي، المولديات في الأدب الجزائري القديم عهد تلمسان الزيانية، ص102.

المصادر التي ذكرت أصداء احتفالات الزيانيين بالمولد والنصوص المولدية على مدار ثلاثين سنة وأكثر، وهذا دليل على التمسك بهذا العرف النقدي الذي عرفت به القصيدة العربية المعروفة ولكن طبعا حسب تجربتهما الشعرية والموقف الذي يمرون به في الاحتفالات وسنأتي بمولديات تؤكد ذلك.

ولنبدأ مع السلطان أبي حمو موسى الزياني، وما افتتح به مولدياته طيلة المواسم الاحتفالية، ويائيته (قفا بين أرجاء القباب) (761هـ) من المولديات في مدح الرسول(ﷺ) التي افتتح بها الاحتفال، وهي من أربعين بيتا يستهل فيها حديثه بمقدمة طللية يقول فيها:

قفا بين أرجاء القباب وبالحيّ ** وحيّ ديارا للحبيب بها حيّ

وعرّج على نجد وسلع ورامة ** وسائل فدتك النّفس في الحيّ عن ميّ

وقل ذلك المضني المعذّب بالهوى ** يموت ويحيي فارث للميت الحيِّ

وبث لهم وجدي وفرط صبابتي ** وروِّ حديثي فهو أغرب مروي[1]

فالمتأمل في هذه المقدمة ليتبين تمسّك الشاعر واهتمامه بالتقاليد الشعرية التي نادى بها ابن قتيبة وابن سلام الجمحي وغيرهم من النقاد القدامى والمحدثين الذين تواضعوا على سمات القصيدة العربية وشروط بنائها التي عرفت بها، والذين أشاروا إلى «أن العرب استمدت قواعد وحدود القصيدة العربية من الشعر الجاهلي وخاصة في المدائح»[2]، وكما هو معروف منذ زمن

1- محمد بن عبد الله التنسي، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، مقتطف من نظم الدرر والعقيان في شرف بني زيان ، ص164.

2- أحمد موساوي، المولديات في الأدب الجزائري القديم عهد تلمسان الزيانية، ص97.

حسان بن ثابت أن الشاعر وهو يمدح النبي كان يقدم بتقديم شعراء العصر الجاهلي؛ فكانت القواعد واضحة حيث تفنن فيها الشعراء كلّ بطريقته ولكن الهدف واحد وهو استمالة القلوب.

وقد أكّد ابن قتيبة هذه الحقيقة وهو يبرز أنّ ما يلفت الانتباه في قصيدة المديح هو ابتداء الشاعر بذكر الأطلال والدمن والآثار« وسمعت بعض أهل الأدب يذكر أن مقصد القصيدة إنما ابتدأ فيها بذكر الدّيار والدّمن والآثار، فبكى وشكا، وخاطب الربع، واستوقف الرفيق ... فشكا شدّة الوجد وألم الفراق وفرط الصبابة والشوق ليميل نحوه القلوب ويصرف إليه الوجوه وليستدعي إصغاء الأسماع إليه لأن التشبيب قريب من النفوس لائط بالقلوب...»1؛ وأبو حمو موسى الزيّاني بما أنه المفوَّض الأول في الإلقاء كتقليد متّبع في الاحتفال بالمولد كان لابدّ عليه أن يفتتح بما يجعل الحضور مستمعا منتبها لهاته الأجواء ويعمل على التأثير فيه.

فكانت البداية معه ملفتة للنظر لأنه ابتدأ بطلب يحاكي فيه القدامى «ولعل مقدمة أبي حمو قد جاءت لتكشف عن مقدرته الإبداعية عن طريق التزامه بالتقاليد الأصلية في المجتمع العربي ومحافظته عليها»2؛ فهو يوجه كلامه ويخاطب ويطلب حادي الركب أن يتفقد له المكان ويسأل عن الأهل وكيف الحال، وهو يستعين بأفعال تعينه على ذلك، وهي أفعال تمثل القاموس اللغوي الذي طالما قدّم به الشاعر العربي (قفا- عرّج- ارث- سائل...).

وفي موضع آخر يقدم كذلك مقدمته الطللية على طريقة امرئ القيس، وهذا في مولديته (قفا خبّراني) سنة(769هـ)، وترد أبياتها في كتابه "واسطة السلوك"، ولكن تنقصها الأبيات الأولى بما فيها المقدمة، حيث يقول فيها:

قفـا خبّـــراني عـــن رسـوم ** وعـن معلمـــات طيبات الأرائـــج نواهـــج

1- ابن قتيبة، الشعر والشعراء، تح: أحمد محمد شاكر، ج(1)، دار الحديث القاهرة، سنة 1427هـ- 2006م، ص75، 85.

2- أحمد موساوي، المولديات في الأدب الجزائري القديم عهد تلمسان الزيانية، ص108.

وعن أرض نجـد والعذيب وبـــارق ** ولا تخبّـــراني عــن ذوات الـــدمالج

وجوبا الفيــافي والمهـــامه واستعـــن ** على قطــع أسباب النوى باللواعج1

وله ما يدل على التقديم بالغزل وهو ممزوج بالشوق والحنين المحمدي في نموذج آخر من مقدمات مولدياته، نحو مقدمة مولدية (مشوق تزيّا بالغرام)(763هـ) .

مشــوّق تزيّا بالغـــــرام ** متـــى ذكـــــرى الأحبـــــة
وشـــــــاحا بـــــاحـــا
تعذبــه أشجـــــانه وهـــــو ** ويبدي اشتياقـــه زفـــــرة
صابـــــر ونـــــــواحا2

ولما كانت تلك الليلة لعظمة المصطفى وجماله وإسوته ، فحري به أن يحضر المديح النبوي في هذا المقام يفرض وجوده الجمالي والفني، والأولى بهم أولئك الشعراء أن يستشعروا ذاك الجمال وتلك العظمة في النفوس بما أُتُوا من قوة في الأداء الفني، والأولى بهم أول النّاس في متعة الحدث وأناقته، أولى بهم أن يتأهبوا ويستعدوا بنصوصهم المولدية لإحياء ذكرى مولده النبوي، وهذا هو الطابع العام الذي عرفت به وهي تلقى في حضرة السلطان في الدولة الزيانية.

والواقف على هذا النوع من المديح النبوي ليجد أنّ له ميزات إضافة إلى ما رأيناه أنه يُخصص لذكرى مولد الرسول ، وأنه يحضّر له بالقصائد لإلقائها على الحضور للموعظة والتأسي

1- عبد الحميد حاجيات، أبو حمو موسى الزياني، حياته وآثاره، الشركة الوطني للنشر والتوزيع، الجزائر، (د،ط)، 1982، ص375.

2- أبو زكريا يحيي بن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك بني عبد الواد، تح: بوزياني الدراجي، ج(2)، دار الأمل للدراسات والنشر والتوزيع، 2007،(د،ط)، ص217.

بقدوته وأخلاقه، وإنّ أول من يلقي في هذا الحفل السلطان أبو حمو موسى الزياني يفتتح به ثم تليه المدائح الأخرى للشعراء، وهذا هو الأسلوب المتبع طيلة شهر المولد والذي يميّز احتفالهم1

ومما يليه من الشعراء الثغري* وهو يقدم في أحد نبوياته (سرّ المحبة بالدموع يترجم)، ولم ترد إلا عند التنسي في كتابه تاريخ ملوك بني زيان، وقد فاقت أبياتها الثمانين بيتا، وهو فيها كالباكي على الطلل، يشتكي ألم الفراق والبعد عن الأهل والخلان، ولكن ليس كمثل أهل امرئ القيس أو خلان زهير بن أبي سلمى وغيرهم، إنما هم أهل البقيع موطن الرسول ؛ فيذكر أنه يتعذب لأنه؛ في شوق إليهم، وذاك ما تضمنته مقدمة القصيدة من البيت الأول إلى البيت الخامس عشر:

سـرّ المحبـة بالدموع ** فالدمع إن تسأل فصيح أعجم
يترجـم
والحال تنطق عن لسان صامت ** والصبّ يصمت والهوى يتكلم

كم رمت كتمان الهوى فوشى به ** جفـن ينـم بكـل سرّ يكتم2

وفي مولدية له أيضا سنة (760هـ) يقدم بالمقدمة الطللية، وهذا في قوله:

[1]– أحمد موساوي، المولديات في الأدب الجزائري القديم عهد تلمسان الزيانية، ص85.

* محمد بن يوسف القيسي التلمساني المعروف بالثغري أبو عبد الله، من أهل تلمسان، ومن أشهر شعرائها وبلغائها المقدمين لدى سلاطينها، له قصائد كثيرة، عاش في أواخر القرن الثامن الهجري، اتخذه السلطان أبو حمو موسى الزياني كاتبا للدولة وشاعرها، (ينظر شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج(7)، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، (د،ط)، = 1408هـ – 1988م، ص121 و أبو العباس سيدي أحمد بن عمار، نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب، مطبعة فونتانة، الجزائر، (د،ط)، سنة 1320هـ–1902م، وينظر لمولدياته عند أبو العباس سيدي أحمد بن عمار، نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب، مطبعة فونتانة، الجزائر، (د،ط)، سنة 1320هـ–1902م، ص 132 وما يليها).

2 – محمد بن عبد الله التنسي، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، مقتطف من نظم الدرر والعقيان في شرف بني زيان ، ص169.

ذكر الحمـــــى فتضاعفت ** شـــــوقـا وضــاق بسره كتمانـــه
أشجانه
دنف تـــذكر من عهـــــــود ** ما لم يكن من شأنه نسيــانـــه1
وداده

ولأن حبّ النبي لا يفوقه حبّ، فإن الشاعر قد أعلن في مولدياته صراحة عزوفه عن المقدمات الطللية والغزلية متفرغا للمديح المحمدي في حبّه والولاء له وهو يضمن كلّ الرموز والدلالات المرتبطة بمشاعر الحبّ المحمدي، وإنّ هذا إعلانا على الإكثار من مقدمات الرحلة إلى البقاع المقدسة وإظهار الشوق إليها، وهي التي ظهرت بانتشار المدائح النبوية مع القرن السادس الهجري، وفيها يذكر الشاعر الأماكن المقدسة معبّرا عن لهفة اللقاء والشوق إلى زيارتها وأداء المناسك والشعائر الدينية.

ويعد البعد عن المقام المحمدي والأراضي المقدسة عموما الدافع الرئيس في تواجد هذا النوع من المقدمات في المولديات النبوية، وهذا ما يحيلنا مباشرة إلى بلاد الأندلس والمغرب، ومدى تأثر الشعراء بمسألة البعد هاته لاسيما حين تأتي ساعة الرحيل إلى الأراضي المقدسة فإن المشاعر تتأجج أكثر وتروح معبّرة عن آلام الاشتياق والحنين محملة الحجيج تلك الرسائل والمراسيل، بل وقد أفردت له القصائد الطوال للتعبير عن مدى قداسية المكان والزمان هناك.

وقد ارتبطت مقدمات الشوق إلى البقاع المقدسة بشعر المولديات، وقد احتضنته وكانت من اللبنات الأساسية في تشكيل بنائها الفني، متضمنة موعد اطلاقة الركب نحو البقاع ومناجاته وتحميله رسائل الشوق والتحية، مظهرا الحسرة لتخلفه وعدم مسيره وإيّاهم ويعبر عن لهفته ومدى ألمه «ومن هنا يجد الشاعر فرصته لامتداحها والتغزل بها سعيا إلى إضفاء طابع القدسية

1- أبو زكريا يحيى بن خلدون، بغية الروّاد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ص217.

والتعظيم عليها»[1]، ومن ذلك يتفرغ غلى المديح النبوي، وهذا ما ظهر في معظم قصائد المولديات بما فيهم المولديات في العصر الزياني.

وقد أسهمت مقدمة الرحلة إلى البقاع المقدسة في إظهار الشوق والحنين وآلام البعد وحسرة البقاء دون الرحيل والسعي مع الركب نحو البقاع، وتعتبر من المقدمات التي هملت على بناء المولديات النبوية، وهذا لما لها من صلاة واضحة في تشكل الموضوع الأساسي وهو مدح الرسول والإشادة بمولده الشريف، وغالبا ما تجده يبرر عدم رحيله وما العوائق التي حملته على البقاء مكتفيا بإرسال الرسائل التي تنوب عنه وهو يطلب الشفاعة من خلالها منه.

وأبو حمو موسى الزياني يفصح عن ذلك في كذا مولدية نبوية له مبينا تلك الأشواق والحسرة والندم معبّرا عن الأسباب التي جعلته لا يسير مع الركب ملخصا إيّاها في مسؤوليات الحكم وثقلها، وهذا بعد ما يذكر انهمار دموعه ساعة الرحيل، وربما يعبّر عن العائق بالذنوب وكثرتها، فيقول في ميميته(760هـ):

حطّ العشّـــــــــاق ** بين العلمــين وبالحـــــــرم ركائبـــــهم

وصـــــروف الـــــدّهر ** فما أبغيــه من القســـــــــم تعارضني

قلبي انفطـــــر والــدّمع ** والرّكب سرى نحو الخيـــم جـــــرى

قـــــد قيـــدني مـــــا ** من أمر حكيم ذي حكـــم2 قلـــــــــدني

[1]– د.محمد زلاقي، بناء القصيدة المولدية في المغرب الإسلامي، ص77.

2– أبو زكريا يحيى بن خلدون، بغية الروّاد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ص107، 109.

وهذا نموذج عن المقدمة في الشوق إلى الأراضي المقدسة لمولديات كثيرات عبّر فيها أصحابها عن مشاعرهم الصادقة التي تفيض شوقا وحنينا متلهفة إلى الربوع هناك والديار والتبرك بقبر الرسول ، وهو الأمر الذي يساعدهم مباشرة للدخول في المديح النبوي

ومن خلال ما تبين سابقا من مقدمات فإن الشاعر يحاول الاستفادة من كل السّمات الفنية التي عرفت بها القصيدة العربية ويمزج تجاربه الخاصة بمدح النبي(ﷺ)، ولذلك تجد التنوع في تقديمهم لمولدياتهم مابين الطلل والغزل، أو ما هو كذلك ويدل على الرمز الديني المتعلق بالنبيρمن أماكن مقدسة لها دلالات دينية، أو بالتقديم المحمدي مباشرة وذكر الرحلة إلى البقاع المقدسة وإظهار الشوق فيها، ولذلك تجلت العناصر التي اشتغل عليها الشاعر في مقدمته كالتالي:

1. **التقديم بالطلل والغزل**
2. **التقديم بالحبّ المحمدي والشوق(الرحلة إلى البقاع المقدسة**

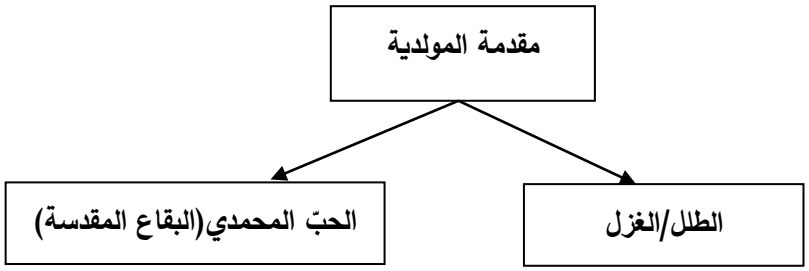

ب. المديح النبوي في المولديات النبوية (الموضوع الرئيس)

نستطيع أن نقول بأن المنطلق الأول والموضوع الأساسي في المولديات النبوية وبغض النّظر عن مشاعر الشوق والحنين، هو حضرة المصطفى ووقوف الشاعر مادحا منبهرا بما حباه الله به من صفات خِلقية وخُلقية والمعجزات وكذا الغزوات والسيرة وطلب الشفاعة والعفو والمغفرة من الله والتوسل، وهو يمتثل لقول ربّه في رسوله الكريم(ﷺ): ﴿وإنّك لعلى خلق عظيم﴾[1]؛ فالشاعر وهو يلقي مولديته يهتم بهذا الجانب المهم في بناء القصيدة.

[1]– سورة القلم الآية: 4.

يعتبر موضوع القصيدة الغرض الشعري الرئيس الذي من أجله انشئت، ولذلك تجد الشاعر يعمد إلى التمهيد ثم الانتقال إلى التحدث عن موضوعه ويختتم، وقد تضمن شعر المولديات عدة مواضيع تداولها شعراء المولديات في إطار مدحهم للرسول (ﷺ) وتعداد مناقبه والخصال والمعجزات مشيدين بليلة مولده وهو موضوع مكمل بالنسبة للموضوع الرئيس لأنه يشكل مرحلة من حياة النبي، ولا ينهي هذا الجزء إلا بعد ذكر ذنوبه وطلبه للشفاعة ثم يعمد إلى الصلاة على النبي.

إذن فمدح النبي (ﷺ) «من أهم العناصر التي تشارك في بناء موضوع المولدية، ويتناول أساسا صفات الرسول (ﷺ) وأخلاقه ومآثره حيث يسعى الشعراء إلى تتبع تلك الصفات التي تدخل في تشكيل ملامح الشخصية المحمدية»[1]، وهذا ما يتفق عليه شعراء المولدية ويشتركون فيه ولكن هذا لا يعني أننا نقرأ صورة واحدة للمولديات، وإنما المقام وما يقتضيه الحال لكل تجربة شعرية لشعراء المولدية تجعلها تتفرد بخصوصياتها الأسلوبية التي يعمل كل شاعر على التفنن فيها حسب طريقته.

فالثغري في يائيته(768هـ) يرى أن الحبيب هو أفضل الرسل، وقد أرسله الله هاديا للبشرية مبشرا برسالات ربه، وقد شرفه الله سبحانه وتعالى بالنبوة مكلفا إيّاه بالتبليغ للعالمين أجمع، وهو يشيد بمولده المعظم يقول:

نبـــــي رآه الله أفضـــل ** فـــأرسلـــه بالحــق للخلق هاديـــا
خلقـــــه
وأسرى به ليلا إلى حضرة العلى ** فشـــاهد فيها كلّ ما كان خافيـــا

[1]– د.محمد زلاقي، بناء القصيدة المولدية في المغرب الإسلامي، ص142.

نبي له فضل على كل مرســـــل ** كما فضلت شمس النهار الدّراريا

أشهر ربيع حزت كل فضيـــلة ** ويــا ليلـــة الاثنين فقت الليـــاليا

ويا مولد المختار وافيت زائـــــرا ** فللـــه مــا أسنى الحبيب المــوافيا[1]

والشاعر لإثراء مولديته لابد عليه أن يستمد كل المعلومات المتعلقة بسيرته من الموروث الإسلامي واستلهام تلك الأحداث المتعلقة بأيام ولادته والمعجزات و حتى الكرامات من النصوص المقدسة أو أحداث التاريخ، وهذا ليثبتوا مكانته وفضله على الخلق، كما أنهم استفادوا من المفاهيم الصوفية التي تثبت له حقيقة تلك الكرمات الربانية، وما يلاحظ أن المحاور التي يعتمد عليها الشاعر هنا في هذا الجزء ويكثر تداولها في المديح النبوي هي محاور متعلقة حضرة النبي (ﷺ)، وتتمثل في:

1. **مدح الرسول(ﷺ) وتعداد مناقبه وخصاله.**
2. **تعداد المعجزات.**
3. **الإشادة بليلة ميلاد النبي (ﷺ)..**

[1]– أبو زكريا يحيى بن خلدون، بغية الروّاد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ص371– 373.

4.الاعتراف بالعجز عن الإحاطة بمدح الرسول(ﷺ).

5.الاعتراف بالذنوب والتقصير وطلب الشفاعة والعفو.

وما جمع بين هاته العناصر في محور الموضوع الرئيس وهو مدح الرسول (ﷺ) خاصية السرد لاحتوائه على «مادة تاريخية غنية بالأخبار والأحداث وقد استدعاها الشعراء لأجل التسامي بالشخصية المحمدية ومحاولة رسم صورة متعالية لهذه الشخصية بحيث تجعل منها نموذجا رفيعا يعلو على كل الخلق»[1] استقاها الشاعر من المصادر التي اعتمد عليها في رصد سيرة الرسول (ﷺ) في مدحه وذكره لصفاته ومعجزاته والإشادة بيوم مولده وهو العنصر الأساسي في كل ذلك، وهذا معظم ما ظهر في القصائد المولدية، ومثال على سبيل التمثيل لا الحصر قول الثغري في لاميته(761هـ):

وما خصّ بالإســـــراء إلا محمـــــد ** وما جال فوق العرش إلاه جائل

هو اخترق السّبع الطبـــاق لربـــــه ** فأولاه إسعــافا بمــا هو سائـــــل

وكم معجـــــــــزات للنبي محمـــــد ** ظواهر لا تبغـــي عليها دلائـــــل

لنا الفخر إذ كنّـــــا به خير أمـــــة ** نفاخـــر من شئنـــــا به ونطـــاول2

وفي ميمية له أيضا يشيد الثغري بالمولد النبوي الشريف سنة(770هـ)، وهو الموضوع الذي من أجله نظم شعراء الدولة الزيانية مولدياتهم إحياء لليلة مولد الرسول صلى الله عليه:

[1]– د.محمد زلاقي، بناء القصيدة المولدية في المغرب الإسلامي، 347.

2– أبو زكريا يحيى بن خلدون، بغية الروّاد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج(2)، ص161.

سرّ الوجود وصفـــوة الله ** ختمت به الأرسال خير ختـــــام الـــــذي

في ليـــلة الاثنيـــن أشرق ** بأجل شهـــر أو بأسعـــد عـام نـــــوره

أبـــدى لنا مـــن هـــدية وجبينـــه ** نورين شمس ضحى وبـــدر تمـــام1

وها هو التلالسي يقرّ بذنوبه في مولديته اللامية(765هـ) وهو يلوذ مستشفعا بالنبي حتى تحط ذنوبه وخطاياه، وهذا في قوله:

وهل من شفيـــــع غيره يرتجى ** عزى النّاس سكر من عذاب وأهوال إذا

بأمداحـــه يـــا نفس لـــــوذي فإنها ** شفـــائي من وعك الذنوب وإبلالي2

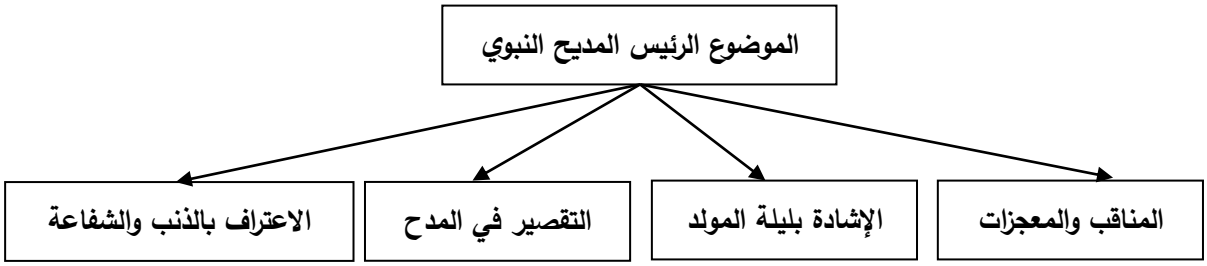

ج. المديح السلطاني في المولديات النبوية (الموضوع الثانوي)

وإذا ما بحثنا عمّا يميز المولدية عن باقي المدائح النبوية الموضوع الذي يلي مدح المصطفى(ﷺ) وهو مدح السلطان؛ بحيث يخصص الشاعر المقطع الأخير من المولدية لمدح

1- المصدر نفسه، ص402، 403.

2- المصدر نفسه، ص291.

الملك الذي يشيد بصنيعه في استعداده وإقامته للاحتفال وتعظيمه لليلة المولد النبوي الشريف بما يستحقه النبي(ﷺ) ، وذلك بالاعتماد على محاور تمثلت فيما يتعلق بـــ:

1. **الأخلاق والمآثر التي عرف بها السلطان**
2. **السيرة الحربية والإشادة بشجاعته وإقدامه**
3. **اهتمامه وإقامته للمولد النبوي الشريف**
4. **الختام بالدعاء له وتهنئته بصنيعه في الاستعداد بالمولد الشريف.**

ومن خلال هاته الصفات يشيد الشاعر بالسلطان، وهذا ما عرف به شعراء المولدية الزيانيين ومدحهم للسلطان أبي حمو موسى الزياني، وهو مدح صادق ساروا فيه على نهج القدامى في غرض المدح والإشادة بما يتعلق بالفضائل الإنسانية والخلال المشهورة التي عرفت عند العرب«ومنها الجمال والبسطة ومنها في الخُلُق والسّخاء والشجاعة والحِلم والحزم والعزم والوفاء والعفاف والبرّ والأمانة والقناعة والغيرة والصدق والصبر والورع...»[1]، وهي تتضمن المثل الأعلى التي انطلق منها الشاعر في مدحه لممدوحه والالتزام بها، وهذا ما يعبر بالإصابة في المدح.

وقد اختصر قدامة بن جعفر هاته المثل في أربع صفات وهي «العقل والشجاعة والعدل والعفة»[2]، ومن أعملهم في مدحه يعتبر مصيبا، والمتأمل في مولديات شعراء بني زيان أن مدحهم للسلطان كان من هاته المنطلقات وجملة الصفات إلي تداولونها، وقد جاءت في محورين هما: القيم الأخلاقية والسيرة الحربية، وهذا ما ظهر عند معظم شعراء المولدية.

جاء المحور الأول وهو القيم الأخلاقية يمثل كل الصفات التي مدح بها شعراء المولدية الحاكم السلطان، وهي صفات تمثل المستوى الاجتماعي وتعاملاته مع الرعية وما الانجازات التي

[1]– محمد أحمد بن طباطبا العلوي، عيار الشعر، تح: عباس عبد الستار، دار المتب العلمية، بيروت–لبنان، ط(2)، 2005م–1426ه، ص 18.

[2]– أبو الفرج قدامة بن جعفر، نقد الشعر، تح: د. عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ص 96.

قام بها أجل البلاد والعباد والدين، والمستوى الديني المتمثل ورعه وعدله وفي حماية الدين والبحث عن كل السبل التي يدافع بها كل من يهدد استقرار البلاد والأفكار، وهو الأمر الذي جعله يقيم الاحتفالات الدينية إحياء لذكرى المولد النبوي الشريف.

أما عن المحور الثاني فتمثل في السيرة الحربية التي عرف به في بلاد المغرب والدور الذي قام به في استقرار الصراعات التي عمت بلاد المغرب ولنصرة الدين وحماية الإسلام،«من هنا راح الشعراء يستشرفون في ممدوحيهم قيم الحياة السياسية فأشادوا بقوتهم وشجاعتهم وبأسهم وبغيرتهم على الدين والوطن، وما امتازوا به من حنكة سياسية ودهاء حربي»[1]، لمواجهة الدين النصراني، وهذا من العناصر الهامة التي تدخل ضمن المديح السلطاني وتتضمن بصفات الملك القائد والبطل ووصف جيشه وعتاده.

وهذا ما كان مع السلطان أبي حمو موسى الزياني بحيث أشاد الشعراء في مولدياتهم بالمشهد الاحتفالي بصنيعه في حماية الدين، وأفردوا له مقطعا في المولدية النبوية لمدحه والإشادة بأخلاقه وشجاعته وإقدامه وقوة جيشه فضلا عن كل هذا مدى الأهمية التي أولاها للمولدية النبوية في الجزائر بتلمسان، وقد فاق ذلك كل باقي الاحتفالات الأخرى، ولا يخفى على الباحث في شأن المولديات الزيانية مدى التنافس الذي كان بين الشعراء في مدح السلطان ووصفه بما يستحقه من صفات أخلاقية وأملهم في وصولهم بنظمهم إلى ما يستحقه من مديح وإشادة، وهذا مظهر في معظم قصائدهم.

ومما يدل على ما ذكرناه قول الثغري في لاميته(760هـ)، يصف أفعاله كيف أنه حارب الباطل وعمّ في دولته الخير، وقد وصفه بالإمام:

فذلك موســـى الإمـــام الـــذي ** محـــا عن رعيتـــه كـــل باطـــل

[1]– د.محمد زلاقي، بناء القصيدة المولدية في المغرب الإسلامي، ص 208.

تحلـــــى بـــــه الملك درّا ** ومـــا زال مذ كـــان للخير فاعل نفيســـــــا[1]

وأما الشاعر الحاج أبو عبدالله محمد بن أبي جمعة التلالسي*، وهو طبيب الدولة الزيانية يشيد بمكانة الساطان في موشحته (763هـ)، فيقول في مدحه:

أجْزَتْ لنـــا من ديـــــار ** ريح الصَّبـــــا عافـــــرات الخـــــــلّ الذَّيـــل

يـــــا أيهـــــا الملك المنصـــــــور

يا مـــن لـــــه الأمـــــر والتأميـــــر

بنصـركم قد جـــــرى المقـــــدور

في مدحكـــم يا زكي ** يـــــدي تخـــطّ وقلـــبي الأصـــــــل يملـــي[2]

أما عن كاتب الدولة الزيانية أبو زكريا يحيى بن خلدون، فله من القصائد ما يثبت ولاءه للملك، وهذا ما تجده من أبيات عنده في كتابه بغية الروّاد في نونيته(770 هـ)، إذ يقول مشيدا ومادحا:

هو الملك المنصور والواحـد الذي ** بـــه قُضيت للمعلـــوات ديـــونُ

بـــه الله أعطى للخـــلافة ** فعـمّ الـورى عـــــدل وأيّـــد ديـــنُ حقّـــــها

1- أبو زكريا يحيى بن خلدون، بغية الروّاد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج(2)،ص121.

* محمد بن أبي جمعة بن علي التّلالسي أبو عبد الله، لا يُعلم تاريخ ميلاده، وتوفي بعد(767هـ-1362م)، هو من أهل تلمسان، اتخذه السلطان أبو حمو موسى الزّياني الثاني طبيبا له، وهو شاعر وأديب عرف بالمولديات النبوية وإلقائها في الاحتفالات بالمولد النبوي الشريف في الدولة الزيانية، (ينظر عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص 63).

2- أبو زكريا يحيى بن خلدون، بغية الروّاد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ، ص222.

فيمنـــاه يوم الحـرب والسـلم للعدا ** ضـــــرام وللراجـــــي النّـــوال معين

وشيمتـــه الفخـــــر العظيم ** من العلم والرأي الرّجيـــــح فنـــون1

وعنده

والوقوف إلى حضرة السلطان يجعل الشعراء يجودون بكل ما لديهم في قرائحم الفنية، وهذا ما أشار إليه الدكتور عبد الله الحمادي إلى جو التنافس في المدح بين شعراء المولدية، وهذا ما كان يخلق جوا من التنافس بينهم، ونلمح ذلك مع زكريا يحيى ابن خلدون[2*]، وهو يثبت شاعريته منافسا الثّغري شاعر الدولة والبارع في نظم المولديات النبوية؛ حيث يقول في بائيته (771هـ):

ودونك من نسل القريض كريمـــــة ** تـــــزفّ بمغنـــاك العلـــي عن الشهب

أتتك كمـــا شـــــاء الكمـــال كريمـة ** بديعة نظم من عروض ومن ضـرب

وقفت بها بين السّـــماطين منشـــدا ** لدى ملك الدّنيا ففقت بها صحبـــــي

وبـــان بهـا فضلي على كلّ شاعـر ** فليس لها فيما يقولـــــون من تِـــربِ3

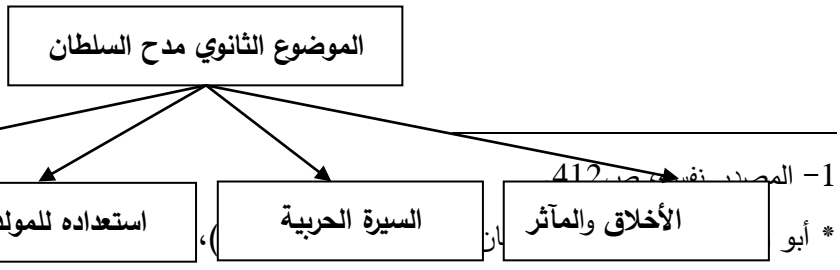

1- المصدر نفسه، ص412.

* أبو [illegible] النبوي، اتّخده السلطان أبو حمو مؤرخ الدولة الزيانية، (د. محمد أحمد درنيقة، معجم أعلام شعراء المدح النبوي، تقديم: د.ياسين الأيوبي، منشورات مكتبة الهلال للنشر والتوزيع، بيروت، (د،ط)، 2003، ص 439.).

3- أبو زكريا يحيى بن خلدون، بغية الروّاد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج(2)، ص439.

د. خاتمة المولدية:

وإنّ آخر ما ينهي به الشاعر مولديته تهنئة السلطان لكل الإنجازات التي قام بها، وفي العرف النقدي لابد أن للشاعر أن يأتي بكلمات يستقطب بها المتلقي، ولذلك كان لها من الأهمية ما يجعل الشاعر يهتم اهتماما كبيرا بها ويعمل على حسن التخلص من الموضوع إليها، مدرك أن الانتهاء هو أساس القصيدة وآخر ما يبقى في خلد المستمع، ولذلك تجد الشاعر ينتقي لصياغتها الصياغة المحكمة واللّفظ الرقيق والعذب في الدعاء للسلطان وتهنئته بصنيعه وافتخار الشاعر بنظمه أو التصلية على النبي(ﷺ) والتضرع إلى الله .

وللمولدية النبوية صورتان من الخاتمة حسب ما تحتويه من عناصر؛ فهناك الخاتمة (المفردة)؛ تتحدث عن عنصر واحد، وهناك المركبة وتحتوي على عدة عناصر؛ والتلالسي في مولديته اللامية (760هـ) يمثل الصورة الأولى(الخاتمة المفردة)، ويشيد بالملك أبي حمو موسى الزياني وثباته في أمر الحكم، وهو يدعو له مفتخرا بشجاعته، فيقول:

دع المعتـديـــن فما ** يـــداهم بمـــا قد حوتــه بطــائلْ ظفـــرت

فـــلا زال أمركـــم ** وملككـــم ثابتا غيـــر زائـــلْ[1] نافـــذا

1- زكريا يحيى بن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج(2)، ص122.

أما عن الصورة الثانية، فتبدو في مولدية الثغري الميمية (770هـ)، وهو يجمع بين عنصرين هما الّدعاء للسلطان والفخر بالشاعرية والتّصلية على النبي(ﷺ) داعيا له بالسّعادة ودوام العلو والمكانة الرفيعة التي ليس لها مثيل، فيقول:

فاسلـــم أميـــــــــر المؤمنين ** في غبطــة موصـــــــولة بـــــــدوام مؤيـــــدا

دامت علاك فليس مثلك في العلا ** سام ولا لك في الملـــــــوك مسَام[1]

ثم تجده يفتخر بنظمه لأجل السلطان أبي حمو موسى الزياني، وهو يشبّهه بالروضة الغناء التي تستمد خضرتها منه، وفي الأخير يصلي على النبي(ﷺ)، فيقول:

واقطف من الأشعار روض جادَه ** من جودك الفيّاض صوب غمــام

وإليك من سحـــــر البيان بدائعا ** قصـــر الخطا عنـــــها أبو تمـــــام

خُتمتْ بذكـــــر المصطفى فكأنها ** نفحات مســـك عند فضّ ختـــام[2]

ثالثا: بناء شكل المولديات النبوية

ومنذ القدم قد أقامت القصيدة العربية ذلك التعاضد الذي يقيم لها بناء كيانها من البداية إلى النهاية، ونوّهت بضرورة التلاحم بين الشكل والمضمون، وبعدما رأينا البناء المضموني الذي يميز المولدية النبوية وهيكلها العام بالنسبة لما احتواه من مضامين وموضوعات ومعانٍ، فإنه لابد من

1- المصدر نفسه، ص406.

2- المصدر نفسه ، ص407.

ربطه بالبناء الشكلي المتمثل في تلك المحاور الكبرى التي تضم اللغة والأسلوب والصورة والموسيقى.

فقيمة النّص وجودته الفنية تتشكل من تلك الأدوات الفنية التي يستلها الشاعر لأجل بناء موضوعاته التي يريد التعبير عنها وتقديمها في أحسن الحلل وأجمل الأثواب، فيثباحث بهذا في عناصر التشكيل الشعري ويستقصي الكيفية التي بها يضمن بها لنصه الشعري الجودة والتفاعل مع المتلقي، وبالتالي يضمن الجودة الفنية لإبداعه توصله إلى عالم القارئ و مدى تعامله معه، لاسيما حين يرتبط الأمر بالمولدية النبوية لأن موضوعها عظيم له قداسته الدينية التي تحمل الشاعر على التسخير الفني المحكم والدقيق لتوصيل مقاصده به للمتلقي.

فإذا ما تعلق الأمر بالبناء الفني الخاص بالمولديات النبوية، فإنه لابد من الانتقاء المناسب للأدوات الفنية التي «يلبسها الشاعر من روحه ومواقفه ورؤاه ما يجعلها كفيلة بأداء المعنى وتوصيل الفكرة بطريقة آسرة متميزة تبتعد عن النثرية وتخترق الأداء المعجمي إلى آفاق أرحب»[1]، ومن هنا فإن أول ما نلاحظه في انتقاء الشاعر للمعجم الشعري الخاص بمولديته حضور التجربة الشعرية الخاصة بشعراء المولدية اللغة تعبر عن الحالة النفسية والوجدانية في مدح النبي (ﷺ) ساعة اللإبداع والموقف الذي يعيشونه من جراء مشاعر الشوق والحنين إلى حضرته وحالة البعد التي تحمله على استحضار كل ما يعبّر من مفردات عن تلك المشاعر والأحاسيس، بالإضافة إلى عاطفة الحبّ والتبجيل بعظمة النبي(ﷺ) وذكر المفردات التي تعبّر عن تفرده الرباني في معجزاته وسيرته النبوية وكذلك عاطفة الإشادة بالسلطان الذي أقام الاحتفال بالمولد النبوي والتحضير له والاهتمام به.

ولذلك فإن هاته المواقف والتجربة الروحانية والوجدانية التي يمر بها الشاعر في مولدياته تثبت دورها الأساسي في صياغة اللغة الشعرية وانتقاء المفردات والمعجم من خلال تحكم الشاعر

[1]– د.محمد زلاقي، بناء القصيدة المولدية في المغرب الإسلامي، ص 231.

في التوظيف انطلاقا من طبيعة الكلمات ومناسبتها لأفكاره وما يختلج في نفسه، والمتأمل في اللغة الشعرية للموليديات يجدها إلى المعجم الديني والمعجم القديم أميل بحكم المرجعية التي لابد عليه أن تتشكل عنده لأن الأمر متعلق بحضرة الرسول (ﷺ) وبما سنّته القصيدة العربية في اللغة والكلمات.

فالجانب الديني الذي يجمع ما بين النص القرآني الكريم والنص النبوي والأحاديث وكل ما يتعلق بالسنة والسيرة النبوية والصفات التي وصف بها الله نبيّه في النص القرآني، وهذا يعتبر مادة مدحية غنية بالنسبة للموليديات متعلقة بالمديح النبوي، فيستلهم منها الشاعر اللغة القرآنية للتعبير عن مناقب الرسولρ ومآثره والأشادة برسالته للعالمين، وهذا مثل الكلمات[محمد، أحمد، النور، الهدى، الحبيب، الشفيع، الرؤوف، رحمة للعالمين، خاتم النبيين]، أما ما يتعلق بالمعجزات فنجد الشعراء يتداولون المفردات الخاصة بتلك الآيات والعلامات النبوية [شق الصدر، حن الجذع، إيوان كسرى، نار فارس، الإسراء والمعراج]، وهنا تحضر مفردات عالم التصوف في التعبير عن العناية الإلهية للنبي(ﷺ)، وما يتعلق بالعبد من المناجاة والاستشفاع وإقرار التقصير وكثرة الذنوب والاستجارة للعفو المغفرة.

أما ما يتعلق بالمعجم القديم للمفردات فهذا يرجع إلى النهج الذي سارت عليه المولدية النبوية في التقديم وتجربة البعد عن الديار والنأي ومشاعر الشوق والحنين، وهنا تجد شاعر الموليديات يستقي مفرداته من مصادر قاموس اللغوي الخاص بالقصيدة القديمة؛ حيث تجد نفس القدامى في التقديم ودلالات الطلل والغزل والرحلة حاضرة على مستوى مقدمات الموليديات، ومدى إسهامها في تشكيل المعجم الشعري للموليديات إلى جانب القاموس الديني، فيكثر حضور اللغة القديمة وما له علاقة بالبيئة العربية القديمة أنذاك[الصحراء، الفيافي، المرابع، الربع، الحمى، الأطلال، الرسوم، الوصل، الهجر، النحيب، السهاد، الصبابة، النوى، الهيام، الوشاة، الركب، الحادي، العيس، النوق...].

أما ما يتعلق بمدح السلطان في المقطع الأخير بالمولدية، فنجد لغة المدح للقصيدة العربية أكثر حضورا في هذا الجزء؛ حيث نجد المفردات الخاصة بالسيرة الخلقية[العدل، الدين، العطاء، ...]، ومفردات متعلقة بمجال الحرب [الوغى، الشجاعة، الإقدام، الطعان، الذوابل، النصول، الرّماح، الحسام]، وكلّ ما يتعلق بالمديح السلطاني من مفردات التهنئة والإشادة بشخصه وصنيعه إلى اخاتمة، وهاته المفردات كلها تعمل على توضع اللغة الشعرية الخاصة بالمولديات وما انمازت به من رقة وجزالة وليونة وقوة حسب الموقف النفسي ومقتضى السّياق في الجزئية التي يعالجها سواء أكان مدحا للنبي(ﷺ) أم مدحا للسلطان الحاكم.

وفي هذا دلالة على العناية الكبرى عند شعراء المولدية النبوية في تشكل الثروة الغنية بالمفردات والكلمات التي توزّعت في النص ما بين القاموس القديم والقاموس الديني مما يؤكد على الطرح التقليدي الذي عرفت به القصيدة العربية، وهذا ما ظهر على مستوى المحاور الثلاث، وما يتطلبه كل محور وانتقاء ما يناسبه من المعاني والدلالات التي تعبّر عن مضامينه متناغما مع الموقف النفسي والفكرة المرادة.

أمّا في ما يخصّ الصورة الشعرية، فإن شاعر المولديات لا بد من أن يحرص على تقريب الأفكار والأحاسيس التي عبّر عناه المعجم الشعري ولكن بطريقة الشاعر وهو يعُمل ما يثير انتباه القارئ ويتجسم له ويتشخص المعاني حتى تتمكن في الأذهان، وهذا أمر «هام داخل البناء الشعري بحيث يتم من خلالها تجسيد المعنى وتوضيحة وتقديمه بالكيفية التي تضفي عليه جانبا من الخصوصية والتأثير»[1] فتقدم هاته المادة اللغوية تقديما حسّيا مشبعا بالعاطفة والشعور، وهذا من اختصاص الصورة الشعرية التي تجد الشاعر يتوسل بها لأجل هذا التقديم عن المواقف والانفعالات لأنها من أهم أدوات التشكيل الشعري في القصيدة العربية.

[1]– د.محمد زلاقي، بناء القصيدة المولدية في المغرب الإسلامي، ص 371.

ولذلك فإن الصورة الشعرية تنقل التجربة التي يعيشها الشاعر اتجاه الموضوع بشكل يجعلهما أكثر تفاعلا في فضاء الصورة والذات المبدعة وهو مفعم بالمشاعر والعاطفة والمواقف النفسية ليحمل معه ذلك الأثر الفني لفعل الاستجابة لدى المتلقي إثارة مشاعره، وللمولديات ما لها في هذا الشأن على اعتبار الطبيعة الدينية التي على أساسها يتم التقديم، بحيث تستمد ملامحها ومصدر قوتها من المعين الديني

فلا ننسى أن أمر المولديات متعلق بذكرى المولد النبوي الشريف، وفيه ما يفتحه الشاعر من مجال الشوق والحنين والحب المحمدي وكذا تعظيم مكانة الرسول(ﷺ) ومدحه وذكر مناقبه وخصاله، والإشادة بصنيع السلطان الحاكم وخدمته للدين والدولة، وهذا ما يثبت المصادر التي جعلت الصورة الشعرية لدى شعراء المولدية مفعمة وحيوية بمصادر ثلاث تعتبر المسؤولة على تشكيل الصورة الشعرية البيانية منها والبديعية عند شعراء المولدية النبوية وهي:

1. **المصدر القرآني**
2. **المصدر الصوفي**
3. **المصدر الشعري العربي القديم**

وهنا تتشكل الصورة من معين يتخذ من أنواعها التي تحضر حسب مهمتها وما يتطلبه الموقف ومقتضيات الحال من خلال محوريين هما محور الصور البيانية المتمثلة في الصورة التشبيهية والصورة الاستعارية والصورة المجازية والصورة الكنائية، وأما المحور الثاني فيتمثل في الصور البديعية التي تظهر في الصورة البديعية الجناسية أو الطباقية أو في المقابلة وغيرها من الصور المشكلة لطبيعة الصورة الشعرية في المولدية النبوية.

وكلّ ما تحدثنا عنه من لغة شعرية ومعجم وصور شعرية لا يمكن تقديمه بحضور النص الشعر الشعري إلا فيما يناسبه من لغة الإيقاع والنغم الموسيقين والتي تضفي لتلك الدلالة متعة الطرب والصوت ورقة السّماع، فيحضر العالم الخاص بالقافية والوزن وما لهما بالإضافة إلى

العناصر الموسيقى الداخلية من تشكيل الصرح المعماري للنص الشعري تشكيلا يبعث بالانسجام والاتساق الصوتي، وتقديم الرؤية الموسيقية بما يناسب مواضيع المولدية النبوية بشقيها الموسيقى الداخلية والموسيقى الخارجية.

رابعا: خاتمة

وما يتراءى للدّراسة من خلال البحث عن المميزات الفنية والسّمات التي تنماز بها المولديات النبوية أثناء إلقائها في أجواء الاحتفال بالمولد النبوي الشريف، هذه النتائج المتمثلة في النقاط التالية:

– كان للمولدية النبوية الأثر الأكبر في انتشار المديح النبوي في الأدب الجزائري القديم، وحيوية النص المدحي النبوي وتنوعه في صور متعددة غير التي عُرف بها؛ بحيث لا يحضر شخص النبي (ﷺ) فيها إنما مشاعر الشوق والحنين المعبّرة عن حال الشاعر وبُعده عن المقام المحمدي المشرّف، وهذا ما يعبّر عن خصوصية المولديات النبوية المغاربية عموما، وكذا حضور المدح السلطاني الذي كان له اهتماماته الكبيرة بمثل هذا اليوم الكبير احتفاء وتبجيلا، بالإضافة

إلى المقصد الديني الذي تداعته الظروف السياسية والاجتماعية التي كانت تمرّ بها الفترة ذلك الوقت.

– أنّ للمولديات تشكيلا فنيا متنوعا يجعلها تماما كما القصيدة العربية القديمة تزهى بحلتها الجمالية التي تجسد رؤيتها الفنية ومخططها الأسلوبي الذي يضعها في سياقها المناسب ومقامها المطلوب حتى تنجح معها مسألة الاستيعاب الجمالي للمتلقي ومدى تأثره وتفاعلها مع هاته الرؤية.

– إذا كان المنطلق ذكرى المولد النبوي الشريف وحضور المقام المحمدي في المولديات النّبوية، فإن هذا يستحق جهدا فنيا على مستوياته الأسلوبية المختلفة، وجهدا أدائيا أثناء إلقائها لأن المشهد الاحتفالي الذي ألقيت فيه يبعث على ظاهرة أدبية تتعلق حيثياتها بموقع العملية الأدبية والإبداعية في نفس المتلقي، وهي مسألة تنتظر حظها من البحث والنقدي الجاد.

– لقد تمتعت المولديات النبوية بتأثيرها النّفسي الكبير في نفس المتلقي، نظرا للعطاء الفني والأدائي الذي عرفت به، وإذا ما تحدثنا عن الوضعية العامة للمدائح النبوية في الأدب العربي الحديث، فهل تراها قد حافظت على ذلك الصدى كما كانت تشهده في ليالي الاحتفال بالمولد النبوي في السابق؟ وهل تقام لها مثل هاته الأجواء من حيث الاهتمام والإبداع وحتى التّلقي؟ هذا ما يحتاج منّا إلى البحث عن حال المولديات النبوية في الأدب العربي الحديث والمعاصر.

قائمة المصادر والمراجع:

- **القرآن الكريم برواية الإمام ورش عن الإمام نافع.**

1. **أحمد موساوي، المولديات في الأدب الجزائري القديم عهد تلمسان الزيانية، موفم للنشر والتوزيع، (د،ط)، 2008.**
2. **ابن جبير، رحلة ابن جبير، دار صادر، بيروت، (د،ط)، (د،ت).**

3.أبو زكريا يحيي بن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك بني عبد الواد، تح: بوزياني الدراجي، ج(2)، دار الأمل للدراسات والنشر والتوزيع، 2007،(د،ط).

4.زكي مبارك، المدائح النبوية في الأدب العربي، مصر الجديدة 1354هـ- 1935م، (د، ط).

5.شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت،(د،ط)، 1408هـ - 1988م.

6.عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر- بيروت- لبنان، ط(2)، 1400هـ- 1980م.

7.أبو العباس سيدي أحمد بن عمار، نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب، مطبعة فونتانة، الجزائر، (د،ط)، سنة 1320هـ-1902م.

8.عبد الحميد حاجيات، أبو حمو موسى الزياني، حياته وآثاره، الشركة الوطني للنشر والتوزيع، الجزائر، (د،ط)، 1982.

9.د.عبد الله حمادي، دراسات في الأدب المغربي القديم، (ط)1، دار البعث للنش والتوزيع، 1406هـ- 1986م.

.10

فاطمة عمراني، المدائح النبوية في الشعر الأندلسي، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع،ط(1)، 1432هـ -2011م.

11. أبو الفرج قدامة بن جعفر، نقد الشعر، تح: د. عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان.

.12

ابن قتيبة، الشعر والشعراء، تح: أحمد محمد شاكر، ج(1)، دار الحديث القاهرة، سنة 1427هـ- 2006م.

.13

لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج(3)، تح: محمد عبد الله غنان، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط(1)، 1395هـ- 1975م.

.14

لسان الدين الخطيب، نفاضة الجراب في علالة الإغتراب، ج(3)، تق، تح:د. السعدية فاعية، (د،ت)، (د،ط).

.15

د.محمد أحمد درنيقة، معجم أعلام شعراء المدح النبوي، تقديم: د.ياسين الأيوبي، منشورات مكتبة الهلال للنشر والتوزيع، بيروت، (د،ط)، 2003.

.16

محمد أحمد بن طباطبا العلوي، عيار الشعر، تح: عباس عبد الستار، دار المتب العلمية، بيروت-لبنان، ط(2)، 2005م-1426هـ.

.17 د. محمد زلاقي، بناء القصيدة المولدية في المغرب الإسلامي، دار بهاء الدين للنشر والتوزيع، (د،ط)، 2013.

.18

.19

محمد بن عبد الله التنسي، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، تح: محمود بوعياد، وزارة الثقافة، (د،ط)، 2007.

.20

ابن منظور، لسان العرب، المكتبة التوفيقية للطباعة، (د، ط)، (د ،ت).

المواقع الالكترونية:

1. جميل حمداوي، شعر النبوي المديح في الأدب العربي، مقال بالشبكة المعلوماتية، ديوان العرب، سنة 2007، الموقع:http://www.diwanalarab.com.